من الأدب الجديد :

الضيف . . . . . .

للأستاذ محمد سعيد العريان

ود توفيق لو يهجر المدينة وأهلها ويقطع صلته بالناس فترة من الزمان ، فإنه ليجد لذة ويحس أنسا أن يفارق هذه الصور التى يطالعها وتطالعه كل صباح ومساء ؛ لقد أطافت به نوبة من الضيق والملل حتى لا يلقى أهله إلا بوجه عابس وطلعة متجهمة ، ودق حسه حتى أصبح سريع التأثر قريب الانفعال ، وكان فى إجازة طويلة ، والجو حار يهيج الأعصاب ويثير النفس ويبعث على السأم ، وإنه ليعيش بين أهله ولكنه يشعر بالوحشة والانفراد ؛ فلا طاقة له على البقاء فى البيت ساعة من نهار ، ولا يجد فى القهوة ما يسلى نفسه ويشغل فراغه ؛ وقد هجره أصدقاؤه جميعاً إلى المصايف أو إلى بلادهم ، وخلفوه ونفسه يصارع الهم والوهم والوحدة والألم . . . !

وتصورت فى خياله القرية التى مس ترابها جلده منذ ربع قرن ، والتى لا يذكر — لبعد العهد — متى هاجر أهله منها إلى المدينة ، ولمه . . . ؟ لاشك أنه سيجد هناك من جدة العيش وطرافته ما يحمل عن صدره أثقال الهموم ويهدى إلى نفسه الموحشة بعض الأنس والهدوء والدعة .

وتراقصت أمام عينيه صورة جذابة من حياة القرية ويسر الحياة فيها بعيداً عن أسر التقاليد وتكاليف الحضر ، وحضرته ذكريات حلوة من زياراته القليلة لأخته فى القرية ، فذكر مجالسه مع شبانها على حافة الساقية تحت شجرة التوت

الغايظة تساقط عليه ثمراً شهياً ، ورياضاته فى جلبابه الفضفاض تحت المعطف الأبيض على شاطىء الترعة وبين الحقول ، يتملى بجمال القرويات غاديات رائحات من الترعة وإليها أسراباً أسراباً يجررن الذيول ، ويحملن الجرار على رءوسهن ، ويهمسن بالغناء الساحر تسيل فى نبراته الرقة والعذوبة والحنين . وذكر مجالس الأنس والسمر فى الليلة المقمرة على مصطبة الدار ، وحديث القرويين يتنقل فى لذة وسمر بعيداً عن التزويق والادعاء الفاخر . . . . وزهته مظاهر التبجيل والاحترام التى تحيط به هناك .

***

وفى اليوم التالى كان القطار يغذ السير بتوفيق إلى القرية ، وقد أشعل بين أصبعيه دخينة وسبح فى أحلام لذيذة بهدوء القرية وسحر بناتها . .

وتلقته أخته بالترحيب والعناق ، وجلست إليه قليلا تحدثه ويحدثها ، ثم تركته لتهيىء له الطعام بيدها ، طعام القرية الشهى الدسم اللذيذ . وتوافد عليه عارفوه وشبان أسرته يحيونه ويتجاذبون وإياه أطراف الحديث ، يقطعون بين فتراته بالتحية المكررة والسؤال عن الصحة والأحوال ...!

وخرج معهم فى العصر يطوف بأزقة القرية يتعرف إلى الوجوه والأبنية ، واخترق سبلا وعرة بين الحفر وكومات السماد ، وبيوتا متواضعة متقاربة كأنما تدانت للعناق . وانتهى به المطاف إلى دار له بها عهد ؛ لأن صاحبها من ذوى قرابته ، واجتمع لفيف من شبان القرية وشيوخها يبعثون التاريخ ، ويتناولون أنباء القرية وحوادثها ، وأنباء السياسة أيضا ، وإن لهم فى السياسة لأحاديث لاتخلو من حكمة وبعد نظر !

وأعجب توفيق بحديثهم كما تعجب بحديث الطفل ، فأنصت إليه فى لذة وأنس ، كما يستمع السائح المؤرخ إلى خرافيات دليله الجاهل عن سر أبى الهول وأطياف وادى الملوك .. !

وأديرت فناجين القهوة ، وانعقدت فى جو الغرفة سحائب الدخان ، واشتد الحر فأسال العرق على الجباه ؛ وشعر توفيق أنه يكاد يختنق ، وأن أعصابه تخونه ، فهم بالانصراف ولكنهم ألحوا عليه أن يجلس فجلس .

وأخذوا فى حديث الشياطين والجن ، فراح كل واحد منهم يحدث بما سمع وما رأى وتفننت عبقرية الجهل فى اختراع القصص المروّعة والروايات الغريبة وطفقوا يعددون الشياطين بأسمائها وحرادثها وضحاياها ... وأشار « الشيخ » بيده فأنصتوا ومالوا برءوسهم إليه ، وقد أخذ يرقص شاربه وترتجف شفتاه فى انفعال عصبى ، وشرع يقص على الحاضرين قصة العفريت الذى كان يتسور عليه البيت وهو شاب ليالى متتابعة ، فيقاسمه طعامه وشرابه ، وفراشه أيضا ، فلا ينصرف إلا مع أذان الفجر ، والزنجية الحسناء التى كانت تصحبه ليالى فتحتل موضعه فى الفراش ، وتضطره أن يقضى الليل معقودة يداه خلف ظهره ورأسه بين ركبتيه إلى حائط الدار ، ثم لا يفارقه العفريت وصاحبته قبل الصباح إلا بنفحة من دراهم أو عصوين من نار تلهبان ظهره ؛ جزاء رضاه أو سخطه على مايصنعان ...

وكان حديثا غريبا على الضيف ، فحاول أن يتفلسف وينكر ويعلل ، ولكنهم أنكروا منه ذلك ، وطلبوا إليه التسليم أو يتعرض لغضب الشياطين وأذاهم ؛ وكانت أعصابه مهيأة للتسليم فسكت . واستمروا يتحدثون .

وأحس رعدة خفيفة تتمشى فى جسده ، فسحب رجليه فى هدوء فدفنهما فى أطراف ثيابه ، وجمع يديه فى حجره ، ومال إلى المحدث يستمع إليه هادئا منصتا فى شبه إيمان . لقد حطمت هذه الليلة الصاخبة أعصابه ، وهاجت وساوس نفسه المريضة .

وانتهت السهرة ، ولكن صاحبنا ظل جامدا فى مكانه ، لم يهم بالقيام حتى دعوه ، فنهض كسيلان متراخيا يكاد يسقط من إعياء . وشيعوه إلى دار أخته

وهو سار بينهم يتعثر فى أوهامه ...

ووجد أهل البيت نياما فلم يبق ساهراً فى انتظار عودته إلا مصباح ضئيل موقد فى الردهة ، يرقص لهبه على عزيف الهواء . وكان يعلم أنهم أعدوا له غرفة فى الطبقة الثانية ، فصعد فى السلم بطيئا متثاقلا يتلفت بين الخطا ، والمصباح فى يمينه . ودفع باب الغرفة بيسراه فسمع صوتا يشبه أنين المستصرخ ، فأدار ظهره فى فزع لدى من هناك ، ولكنه لم يجد شيئا ، وعاد يدفع الباب ، فسمع حشرجة خشنة ، ثم ضحكة بشرية ناعمة . . !

ووقف فى وسط الغرفة يقلب بصره بين زواياها فى رعب وفزع ، وكانت به رغبة فى التدخين ، ولكنه لم يجرؤ أن يذهب إلى الغرفة الثانية — حيث أودع حقيبته — ليستحضر بعض التبغ . وخلع نعليه وهو جالس على حافة السرير ويداه ترتعشان ، وتتجاوب فى أذنه أصوات غريبة تفزعه وتسلبه الطمأنينة . ودفن نفسه فى الفراش ، واستلقى على ظهره وقلبه يدق دقات عنيفة ، وكأن يداً غليظة تقبض على عنقه ، وأشباحاً خفية تطيف به .

وكان يعلم أنه ليس فوق السطح غير أكداس من الحطب والوقود ، ولكنه أحس دبيب أقدام ، وسمع أصواتا غريبة هامسة ليست من صوت البشر ! أتراه أغضب الشياطين فأرسلوا إليه عفريتا ينتقم منه ؟

وضاقت أنفاسه ، واضطرب فكره ، واشتد ضغط الوهم على صدره ، وهم أن يصرخ ويستنصر ، ولكن صوته احتبس ولم يتحرك لسانه . وشبه له أنه يرى شبحا من الضباب فى شكل غير إنسانى — وإن كان يمشى على رجلين — ينسل من النافذة مع ضوء القمر ، ويشير إليه بالصمت فى إنذار وتهديد . . . !

وسحب الغطاء يخفى عينيه فى حركة آلية ، لكنه أحس شيئا بارداً يلمس أطراف قدميه ، فاستوى جالسا وأفلتت منه صرخة مخنوقة ، وتوارت الأشباح فلم يبصر شيئا ، ولكن همهمة غير مفهومة ، ودبيبا وهمسا ، وأصواتا غريبة ،

تصك أذنه من بعيد . واستلقى ثانية على الفراش وهو يحدق فى الحائط الذى أمامه تحديق الخائف المذعور ، فقد أبصر ظلا أسود مطبوعا عليه ، يحرك رأسه ويشير بيديه كأنه يتحدث إلى شخص بعيد . وود توفيق أن ينظر إلى ماوراء ليرى المشار إليه ، ولكنه خاف ؛ واستمر الهمس والدبيب يرنان فى أذنيه ، وتتراقص الرؤى والأشباح أمام عينيه ، فلم ينم ليلته ؛ وفى الصباح ، مع أول خيط من ضوء النهار ، كان جالسا فى فراشه يصفق بيديه فى عنف يستدعى الخادم . ودخلت أخته تحييه ، فراعها مارأت فى وجنتيه من صفرة الخوف وإعياء السهر ، وقالت له « توفيق ، ماذا بك ؟ » .

— « لاشىء ، ولكنى مسافر اليوم فأعدى لى ركوبة إلى المحطة » .

— « مسافر ؟ ولكنك عرفتنى أمس أنك قد تمكث لدينا شهرا ، فلماذا غيرت رأيك ؟ » .

— « لاشىء ، لاشىء ، قلت لك لاشىء . إن حقيبتى فى الغرفة الثانية » .

وآلمتها لهجته فحطت شفتيها آسفة وخرجت تنفذ ما أمر به ، ثم عادت تسأله « حدثنى ياتوفيق ، هل تألمت من شىء هنا ؟ »

— « لا ، ولكنى لم أخبر أمى أمس أنى مسافر ، فأخشى أن يقلقها غيابى أو يؤلمها ، لذلك سأعود . »

— « ليتك لم تحضر ياتوفيق . » وانصرفت لبعض شأنها .

***

وحين تناول توفيق حقيبته من حيث وضعها أمس ، أفلتت منها ورقة فظنها سقطت منه ودسها فى جيبه قبل أن يقرأها .

ولما جلس فى القطار ، وضع يده فى جيبه ليخرج شيئا ، فعثر بالورقة ونشرها بين أصابعه يقرؤها . . . . وضحك توفيق وشاع فى وجهه السرور حين عرف ماهناك ، لقد كانت أخته تربى له ماعزة ولوداً ، فكتبت له هذه الورقة أمس تخبره أن فى ضيافة ماعزته فوق السطح جديا فلا يفزعه دبيبهما ، ريثما ترد الجدى إلى صاحبه فى الصباح . .

لقد خاف توفيق وفزع ليلته ، لأنه كان يظن أنه وحده ضيف البيت ..؟

محمد سعيد العريان